المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وادابها
International Journal of Arabic Language and Literature Studies
ISSN: 2707-7659

القمر في شعر ابن زيدون

د. محمود حسين العزازمة-أستاذ مشارك- قسم اللغة العربيّة وآدابها-جامعة الفجيرة- دولة الإمارات العربيّة المتّحدة.
د. وصال وليد الهويمل- أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية وآدابها -جامعة الفجيرة- دولة الإمارات العربيّة المتّحدة.

تاريخ استلام البحث: 2023/04/20	تاريخ نشر البحث: 2023/05/05	المجلد: 5	العدد: 1

الملخص:
يجتهد هذا البحث في إضاءة ملمح مهم من الملامح الموضوعيّة في شعر ابن زيدون، ألا وهو توظيف عنصر من عناصر الطبيعة الصامتة" القمر"، وقد لوحظ وروده في شعره بشكل لافت جدير بالدراسة والتأمّل. والقمر في الشّعر العربيّ حاضر منذ العصر الجاهليّ إلى يومنا هذا؛ لما فيه من خصائص تمكّن الشاعر من التعبير عن مكنوناته النفسيّة، و علاقته بالذات والآخر وكلّ ما حوله، وهذا ما نلمحه بصورة جليّة واضحة عند ابن زيدون، إذ يطلّ القمر بديوانه هنا وهناك، حاملاً تناقضاته الشعوريّة، وتجاربه المختلفة ، كعلاقته بالمحبوبة ولّادة بنت المستكفي، وملوك الأندلس، فنراه يستدعي القمر للمدح تارة، وللحبّ والغزل تارة أخرى، ثمّ للرثاء، والعتاب، والتجلّد على ويلات السجن أحياناً أخر.....؛ لذا جاء البحث ليدرس ما سبق، ويخلص إلى تبيان آليّة التوظيف ، ودوافع ذلك، ودوره في تشكيل النصّ مبنى ومعنى.

الكلمات المفتاحية: ابن زيدون، القمر، ولّادة بنت المستكفي، الطبيعة، البدر.

The Moon in Ibn Zaydun’s Poetry

Dr. Mahmoud Hussein Al-Azazma, Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, University of Fujairah, United Arab Emirates
Dr. Wesal Waleed Al-Huwaimel, Visiting Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, University of Fujairah, United Arab Emirates

RECIEVED: 20 April 2023	**PUBLISHED:** 05 May 2023	**DOI:** 10.32996/ijalls.2023.5.1.2

Abstract
This research endeavours to illuminate an important feature of the poetry of Ibn Zaydon, namely the employment of an element of silent nature "the Moon", which is noted in his poetry in a striking manner worthy of study and reflection. The Moon in Arabic poetry has been present since today ' It has the characteristics of enabling the poet to express his psychological potentials, his relationship with himself and the other and all around him. This is what we clearly glimpse at Ibn Zaidon. The moon overlooks his debt here and there, bearing his emotional contradictions, his various experiences, such as his relationship with the beloved wallada Bint al-mustakfi, and the kings of al-Andalus, So we see him calling the moon sometimes for praise and for love and another time, and then for lamentation, for curse, and for glaciating the scourge of imprisonment sometimes another.....; So the research came to examine the above, and conclude that the recruitment mechanism, the motives for it, and its role in forming the text as a structure and meaning.

Keywords: the moon, Wallada Bint Al-Mustakfi, nature, the full moon

المقدمة:

يعدّ ابن زيدون[1] أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومي الأندلسيّ، القرطبيّ من أبرز شعراء الأندلس، وأعلاهم مجداً، وسيادةً، وأدباً. فأشعاره فيّاضة بالمعاني والرؤى، تفتح للباحث أبواب التأويل والتحليل؛ لما فيها من عذوبة لفظيّة، وظواهر فنيّة لافتة، ومعانٍ شاعريّة قريبة للنفس، وبعيدة عن الإغراق في المجاز والتقعّر.

والناظر في أشعاره يرى أنه يمتحي من الطبيعة الأندلسيّة الغنيّة، ويستلهم منها دون إغراق مبالغ في وصف التفاصيل، أو عناية بزخرف القول وبهرجته مع التجنّي على تماسك النص والإخلال ببنيته؛ لذا كثُرت الدراسات التي تناولت شعره بالتحليل؛ بغية الكشف عمّا يخبّئه من معانٍ وتأويلات تحرّض الفكر على مسايرتها، والخوض في غمارها. ومن هنا جاءت هذه الدراسة؛ لتتأمّل القمر في شعر ابن زيدون عبر محاور عدّة، هي: القمر والحب (ولّادة بنت المستكفي) والقمر والذّات الشّاعرة، والقمر والمدح، والقمر والرّثاء.

وقد استفاد هذا البحث من المنهج الوصفيّ التّحليليّ الذي أضاء- بأدواته الرّحبة – دراسة هذه الظّاهرة من مختلف جوانبها.

توطئة

شكّل القمر- منذ القِدَم- سؤالاً شائكاً أمام الكائن البشريّ، وهو لا يفتأ يتأمّله إلى اليوم بحقوله الدّلاليّة المتعددة، وإثاراته المتنوّعة التي استجاب لها، وتفاعل معها تفاعلاً كبيراً جعله يرى في القمر رمزاً وعظمة وعلوّاً، فهو يقدّسه تارة على أنّه إله يُعبد كما عند البابليّين، والسّومريين، والآشوريّين، والفينيقيّين، ومثلهم أيضاً الكنعانيون والمصريون. وتارة أخرى رمز للخصب الإنسانيّ والزّراعيّ كما في بلاد الرّافدين قديماً، فيما يراه أحياناً استمراريّة للحياة بتزاوج الشمس والقمر كما في معتقد الحضارة اليونانيّة، ومقياساً للتقويم الزّمنيّ في الحضارة السّومريّة.[2]

ومهما يكن من أمر، فإنّ القمر قد لبّى حاجة الإنسان وما استقرّ في ذهنه من معتقدات وأفكار، فكان له مظهراً طيّعاً من مظاهر الطبيعة، ومتّكئاً غَدِقاً يمارس طقوسه من خلاله.

القمر والحبّ

وجد ابن زيدون في القمر ملاذاً خصباً للتعبير عن حُبّ الأميرة ولّادة بنت المستكفي[3]، وما أصابه من مشاعر حارقة غلّفت روحه بالحبّ والشوق، وتأرجحت بين الرّجاء والشّقاء، وهي(ولّادة) بكلّ الأحوال عُلْقةٌ بالقلب والذاكرة، تزهو بها نفسه، وتتعطّر بها كلماته، فتطلّ بشعره زاهية عالية كالقمر ، حتى قال فيها:

قضيبٌ من الريحانِ أثمرَ بالبدرِ لواحظُ عينيه مُلِئنَ بالسّحرِ[4]

إذ يشبّهها بالبدر، وهو مرحلة الاكتمال والجمال للقمر، وقد خصّها بالمرحلة هذه واختارها لها، وربّما يعني هذا اكتمالها بنظره، أو شعوره باكتمال الحبّ والحلم، وتجلّيه في أعلى حالات الوجد والعشق إلى أن يراها متفرّدة، باذخة، تنافس غيرها، فتسمو على أترابها، وفي هذا يقول:

ينافسُ البدرُ غرّةَ كوكبٍ دريّ أنّها أبهى سناءً وأضوأ[5]

ويقول في موضع آخر:

لَئِنْ كنتَ في السّنّ تِرْبُ الهلالِ لقد فُقتَ بالحسنِ بدْرَ الكمالِ[6]

فالشاعر يرى المحبوبة من منظوره الخاص، فيطلق حكم تفردها وفق انفعال وجدانيّ، أفضى به إلى رفض سواها، ووقوعه في فخّ التعلّق، وحجب الرؤية عمّن سواها، يقول:

---

[1] القيسي، الفتح محمد بن عبيد الله ابن خاقان(529هـ/1989). قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: حسين يوسف خريوش، ط1، الزرقاء، الأردن، مكتبة المنار.

[2] اشتيّة، فؤاد يوسف (2010). رسالة ماجستير(بتصرّف)، جامعة النجاح الوطنيّة

[3]. هي ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الأموي، أول من سنّ للنساء سنة الانكشاف، شاعرة، اشتهرت بأخبارها مع الوزيرين ابن زيدون وابن عبدوس. كان بيتها مثابة الوزراء والأدباء من الطبقة العالية، يتساجلون أمامها الأدب والشعر والنقد، وقد عُمّرت طويلاً: يموت، بشير (1934). شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ط1، المكتبة الأهلية، بيروت- لبنان، ص224.

[4] . ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، د.ط، د.ت، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ص129

[5] . ديوان ابن زيدون،137

[6] . المصدر نفسه، ص169.

لوْ صبا نحوَنا من عُلْوِ مطلعِه بدْرُ الدّجى لم يكنْ حاشاكَ يُصْبينا[7]

ففي البيت نرى آية كبرى من آيات الحب، إذ فاض الوجد، وأُغمِضت عين القلب عمّن سوى المحبوبة، وكأنّ أسرارَ التميّز والمفاضلة قد سيقت إليها من كلّ جانب.

واللافت في البيت الشعري، أنّ الشاعر على قدر من الوعي الجمالي، والاهتمام بتوظيف المفردة الملائمة، فاصطفى "بدر الدجى" لأنّه الأكثر إضاءة وحاجة، وفيه من الهدى والتّبيان ما يجعل التّائه الحيران ناجياً مهديّاً ، وكأنّ هذا الانتقاء ينسجم مع حالته الشعوريّة، وأنّ إضاءة روحه بالمحبوبة وعالمها، كإضاءة بدرِ الدجى عتمةَ الليل، وبذا فإنّ لغة الشاعر ليست" سوى فواصل نفسيّة ، وليست الألفاظ سوى حركات لذبذبات النفس ومشاعرها"[8] فضلاً عن أنّ هذا العنصر البصري في الصورة الفنّية ، قد سبر أغوار النفس الشاعرة، وكشّف كثيراً من المعاني القارّة في أعماقه، وجسّد حقيقة إنسانيّة واقعة في عالم الحبّ ولوعته.

كما أنّ الزمن بالنسبة له فهذا الموضع (بدر الدجى) ربما هو" مظهر نفسيّ لا ماديّ، ومجرّد لا محسوس، ويتجسّد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره الخفيّ غير ظاهر، لا من خلال مظهره بحدّ ذاته، فهو وعي خفيّ يتمظهر بالأشياء المجسدة" [9]

كما يعمد الشاعر إلى تصوير الجمال الحقيقي للمحبوبة؛ لذا تأتي انفعالاته وتشبيهاته مليئة بالنور والحسن، مستمدّة من القمر بكلّ مراحله، وهذا ما يظهر في أماكن متعددة من الديوان، منها:

ما البدرُ شفَّ سناهُ على رقيقِ السحابِ[10]

إلاّ كوجهكِ لمّا أضاءَ تحتَ النّقابِ

ويقول في موضع آخر:

يا بدرَ تمٍّ بدا في أفقِ مملكةٍ فراقَ مطّلِعاً من خيرِ مطّلَعِ[11]

والشاعر في هذا المقام يحاول وضع القمر في مواطن موائمة لرسم الصورة واكتمالها، ولكي يتفاعل أيضاً مع العناصر المكونة لها؛ لتبدو كما لو أنّها ماثلة للعيان أمام القارئ. فالمحبوبة بدر بهيّ، مكتمل، يلوح في أعالي المملكة وأفقها، وأغلب الظنّ أنّه يريد بذلك العلّو بمعنييه: الحقيقيّ والمجازيّ، فهي شبيهة القمر المتألّق بحسنها وجمالها ونورها، وهي أميرة، شاعرة عالية المقام بالمكانة والقدر، تتفوّق وتعلو على من بالمملكة بالنسب والأدب والحسب.

ويقول أيضاً:

فما قبلَ مَن أهوى طوى البدرَ هودجٌ ولا ضمَّ ريمَ القَفْرِ خِدرٌ مُسَجّفُ [12]

والمقصود من البيت: أنّني لم أشاهد من قبل بدراً يمتطي هودجاً، ولا ظبياً يسكن بيتاً تحوطه الأستار قبل حبيبي المشرق إشراقة البدر، وهذا من المعاني التي لم يلتفت إليها الشعراء إلا قلة، بأن يجعلوا القمر شخصاً سائراً بالهودج.

ويقول ابن زيدون كذلك في ولّادة:

أناةٌ عليها مِنْ سَنا البَدرِ مِيسَمٌ وفيها من الغُصنِ النّضيرِ شمائلُ[13]

ونقرأ من أشجانه في ولاّدة وهو داخل السجن:

ما جالَ بعدكِ لحظي في سنا القمرِ إلاّ ذكرتُكِ ذكرَ العَينِ بالأثَرِ[14]

والسّؤال الذي يتفتّق من الذهن: كيف لسجين في مكان دامس أن يجولَ بصرُهُ في سنا القمر؟ وما دافع الشّاعر لهذه الصّورة؟ هل لأنّ الرّوح الشّاعرة مضيئة نَضِرة رغم الظّلام؟ أم لأنّ شعور الحبّ نبيل، لا يليق به إلاّ الجمال؟ أم تراها الطبيعة الأندلسيّة تلحّ عليه

---

[7] . المصدر نفسه، ص147.
[8] . نافع، عبد الفتاح (1983). لغة الحب في شعر المتنبي، دار الفكر، عمان، ط1، ص413.
[9] مرتاض، عبد الملك (1998)، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، عالم المعرفة، الكويت، العدد 240، ص201
[10] . ديوان ابن زيدون، ص150
[11] . المصدر نفسه، ص104،150.
[12] . المصدر نفسه، ص485.
[13]. المصدر نفسه، ص 388
[14] ابن زيدون، ص107

وتزاحمه، فتتبوّأ لها مكاناً رحباً في أشعاره؟ وقد نظنّ فوق ذلك، فنقول ربّما هي شمائل المحبّ المخلص، ورقّة الطّبع التي لا اعتبار للمكان ولا الزمان عندها، فالوصل باقٍ، والقلب لا يسلو أيّاً كانت المُنعَرَجات. وأخيراً لا يفوتنا القول ربّما هي لعبة اللغة، وحقنها بحمولات قابلة للتأويل والتساؤل، بصرف النظر عن الوصول إلى إجابة.

ويتابع الشّاعر قوله في ولّادة:

يا أخا البدرِ سناءً وسنَاً حفظَ اللهُ زماناً أطلعك[15]

والواضح أنّه يستكمل التغنّي بالمحبوبة واقترانها بالبدر، غير أنّه يتخذ أبعاداً أخرى تضاف للقيمة الجماليّة بصورتها الدارجة، فاقتران ولّادة بالبدر قد يعني- كما أسلفنا- أنّها أميرة عالية المقام، رفيعة الشأن، يضاف إلى ذلك علو مكانتها في نفسه وقلبه، إذ لا تدانيها أخرى بالمنزلة. ومن هنا نقول: إنّ الشّاعر وظّف القمر للتعبير عن البعدين: المادي والمعنوي اللذين يسكنانه، ويشكّلان شعوره وأحاسيسه، فضلاً عن عنصر الإقناع الذي يؤديه في النص.

وممّا يقوله أيضاً في ولّادة:

يا قمراً مَطلَعَهُ المغربُ قدْ ضاقَ بي في حبّكَ المذهبُ[16]

والأمر يبدو في البيت أنّه تجاوز حدود التّشبيه بالقمر للنضارة والإشراق، متّخذاً منحنى زمانيّاً له دلالته للتعبير عن مخزون العواطف والدّفقات الشّعوريّة، فولّادة "قمر" يخرج لحظة الغروب، وفي هذا أثر من آثار القمر البارزة، ومناقبه الواضحة، فهو بظهوره غروباً يتهيّأ لإنارة الظّلام، وتخفيف حدّة العتمة، وكذلك هي ولّادة، يتجلّى حضورها في داخله، وفي حياته؛ فتنير النفس، وتبدّد ظلام روحه التي ضاقت بحبها. ولعلّ هذ التوظيف يعكس علاقة الشّاعر بالمحبوبة ومدى ملازمتها النفسيّة له، ناهيك عن بحثه الدّائم عن النور والاستغراق في الحبّ والسّمو، أو الخلاص ممّا يعكّر صفوه، ويحجب مراده.

وممّا يُقرأ أيضا في أشعاره بولّادة:

يا ليلُ طُلْ، أو لا تَطُلْ لا بدَّ لي أنْ أسهَرَكْ[17]

لوْ باتَ عندي قمري ما بتُّ أرعى قمَرَكْ

باللهِ قلْ لي: هلْ وَفَى؟ فقالَ: "لا بلْ غَدَرَك"

والملحوظ من الأبيات، هو استعانة الشّاعر بالقمر بكلّ حالاته الذهنيّة والنفسيّة، ووضعه في سياق حواريّ سردي، يساند في رسم حالته، ويتجاوز الدلالة الظاهرة للمفردة، فثمة القمر والليل، أنيس المرهفين العاشقين، وملجأ المتعبين المشتكين، وفيه القمر رفيق وحدتهم ونجواهم، فالتشبيه هنا إذاً- قد يتجاوز الجمال والبهاء أو الأنس واللهو كما يعرف عن القمر غالباً، وإنّما تأكيداً لعاطفة صادقة باقية، و تجربة نفسيّة حادّة، تكشف عن اضطراب الذّات الشّاعرة، ورؤيتها الأمور على غير حقيقتها، ففي أصعب الحالات وأكثرها وجعاً(الغدر)، تبقى بعينه قمراً لا يغيب، وهذا ما تؤكده أيضاً الأبيات الآتية:

أيّها البدرُ الذي يملأُ عيني من تأمَّلْ

حُمّلَ القلبُ تباريحَ التَّجنّي فَتَحَمّلْ[18]

والبيتان يملؤهما الوجد والعشق، فالمحبوبة هي البدر العالي المتأمَّل، ولوعة القلب المنصهر بالصبر والتّحمّل، وكأنّ هذا السياق- مبنى ومعنى- يذكّرنا بالوجد الصوفي ولوعاته، فثمّة بدر عال، وتأمّل، وقلب عاشق، وصبر، وتحمّل، ومعاناة خالصة، وكلّ ذلك يُرسم وفقاً لمغزى الشّاعر ومرامه، ويعكس قدرة فنيّة، استطاعت أن تشكّل من البدر وعناصر أخرى، صورة روحيّة تنطق بمكنونات الشاعر وآلامه، ويتجلّى فيها تسامي العشق، والامتلاء بالمحبوب.

وعلى طبيعة النفس البشريّة المتقلّبة، فإنّ صحوة شعوريّة، تغيّر مسار القلب ولو إلى حين، وتتمادى على الضّعف والاستكانة، فتنبت فيه حبّاً جديداً، يعلنه ابن زيدون بأنّه القمر البديل الذي يبدّد عتمة الحبيب السابق، وكأنّه بذلك يعمد إلى عنصر المفاجأة؛ فيقول:

[15] . المصدر نفسه، ص167.
[16] . المصدر نفسه، ص169.
[17] . المصدر نفسه، ص182
[18] . ديوان ابن زيدون، ص182.

مَنْ مُبلغٌ عنّيَ البدرَ الذي كَمُلا في مطلعِ الحُسنِ، والغُصنَ الذي استدَلا:[19]

أنّ الزّمانَ الذي أهدى مودّتَه إليّ مُرتهِنٌ شُكري بما فَعَلا؟

أمّا الحبيبُ الذي أبدى الجفاءَ لنا فما رأينا قِلاهُ حادِثاً جَلَلا

ولم يزِدْ أن ظفِرْنا مِلءَ أعينِنا بالمشتري، فتَجنّبنا له زُحَلا

فالشاعر يستدرك نفسه، ويحاول إنقاذها بعد إشرافها على الهلاك، فتراه يدخل في علاقة عاطفيّة جديدة، تعيد توازن النفس، وتوقف صراع الحب البائس، وكأنّه يلخّص لنا حقيقة الإنسان الكامنة في العزّة والأنفة، فيما توظف مفردة "البدر" لتتجاوز الجمال والنور إلى التحدّي ولملمة شظايا الذات بعد انكسارها. فهي لم تعد تطلق على "ولّادة" وإنما أحيلت إلى المحبوبة البديلة؛ نكاية بالجفاء والقسوة. وهي كذلك تحمل معاني متضادّة، وشعوراً متناقضاً، فالقمر- كما نلحظ- للقوة والضّعف، والعزيمة والاستسلام، وللزّوال والحضور، وعلى هذا، فإنّ اللغة عند ابن زيدون حمّالة، غنيّة،" وليست الألفاظ سوى حركات لذبذبات النفس ومشاعرها، ومن ثمّ فكلّ ما تحمله اللغة من مضامين، أو موسيقى إنّما هو انعكاس، أو صدى لهذه النفس"

ومن هنا نلحظ أنّ القمر عند ابن زيدون من العناصر الغنيّة، التي يحمّلها رؤاه المتعددة؛ إذ استطاع أن يحمّل المفردة نفسها معانٍ متضادة متنافرة، فمرّة هو للحبّ والإخلاص، وأخرى للتّخلّي والنسيان، مما يعكس قدرة شعرية، ومعرفة فنيّة بأدوات النّص ومكوّناته.

والملحوظ ممّا سبق هو ربط الشّاعر بين المحبوبة والقمر ربطاً وثيقاً، ولا شكّ أنّ بينهما جوامع عنده، فالقمر مفردة مملوءة بالشحنات العاطفية والكوامن النفسية، فجاء استعماله متفاوتاً مع دلالته المباشرة الموحية بالجمال والإشراق، وهي دلالة اجترايّة معروفة بالشعر العربيّ، غير أنّه في هذه النصوص ، تتزاحم فيه دلالات جديدة، تسعى لرفع فنيّة النّصّ، وحمل رؤيته الخاصة، كإدراك العلاقة بين القمر والمحبوبة، وسعي الشاعر إلى عمق الفكرة مع تبسيط التعبير عنها، وكأنّه يوحي بفكرة كما أنّ القمر نور يضيء ما حوله، فولادة هي نور يضئ روحه، ويثير بداخله مشاعر الحب والجمال والزهو.

وإذا ما أردنا الابتعاد أكثر في التأويل، فإنّنا نظّنّ تشبيه المحبوبة بالقمر ربّما هو للارتقاء بها إلى مرحلة القدسية والتّنزيه بالنّسبة له، فالقمر- كما أسلفا- كان إلهاً يُعبد، لقوله تعالى**:** ": وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " (فصّلت-37)

وهكذا إذاً، فالقمر هنا تعلّق روحيّ، ورمز للطهر والتقديس، فالإنسان قديماً عظّم " الشمس ولكنّه لم يجد فيها ندّا للقمر، ولم تترك في نفسه من العجب والتساؤل ما تركه القمر"[20]

وكذا هي ولادة لابن زيدون، تثير في نفسه ما يثيره القمر من مشاعر وأحاسيس، ظاهرة وباطنة، ومعان يبقى الأفق مفتوحاً لتأويلها واستنباطها، وإن كانت تتمحور حول قوّة الحضور والتّأثير.

القمر والمدح

والمتتبّع لمفردة" القمر" ومراحله في شعر ابن زيدون، يجد أنّها تتناثر في زوايا الديوان المتعددة، وتحضر في حالات الحزن والفرح والقلق، وكأنّها إكسير التأسّي، ومصدر سلوى الذّات وثباتها، فضلاً عن كشفها مدى ارتباطه بالبيئة الأندلسيّة السخيّة، التي تشكّل مكوّناتها إلهاماً وافراً للجمال والإبداع، غير أنّ ما يجدر ذكره، هو تمثّل هذه العناصر للتعبير عن حالاته الشعوريّة والإنسانية بمختلف ألوانها كالحزن، والقلق، وألم السّجن، والفراق، والرّثاء، والعتاب، والنسيان؛ وبذا تدخل مفردة "القمر" في تفاصيل حياته بعيداً عن النمط المكرور، والمحصور في جمال المحبوبة وبهائها.

وفيما يلي عرض لأهمّ الأبيات في غرض المدح:

يقول في مديح المعتضد بن عبّاد:[21]

أغرُّ إذا تجهّمَ وجهُ دهرٍ تبلّجَ فيه كالقمرِ اللّياحِ[22]

ويقول مهنّئاً المعتضد بن عبّاد عند مصاهرته مجاهداً أبا الجيش الموفق، أمير دانية:

---

[19] المصدر نفسه، ص 194

[20] . السواح، فراس (1996). لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، دمشق، ط 6، ص63.

[21] عباد بن إسماعيل بن عباد، المعتضد أبو عمرو، صاحب إشبيلية وابن قاضيها "أبو القاسم".

[22] . ديوان ابن زيدون، ص431.

قُرنتْ ببدرِ التَّمّ كافلةً له أن سوفَ تُتْبِعُ فَرقَدين سِماكاً[23]

وله في المعتضد أيضاً:

خِلتَ اللّواءَ غَمامَةً في ظِلّها قَمرٌ، بِغُرّتِهِ السّنا الوَقّادُ[24]

وكذلك يقول فيه:

مَلِلٌ راحتُه بحرُ الندى مثلما غُرّتُه بدرُ النّدى[25]

فالمعتضد ملك سخيّ، تفيض كفّه بالنّدى كالبحر، جميل يتألّق جبينه كالبدر؛ فتزدان به المحافل والمجالس.

والقارئ يلمس في الأبيات شيئاً غير ما هو مألوف شائع، إذ كثيراً ما توصف الملوك بالسخاء والكرم، غير أنّ الجمال والإشراق، وما شاكلها من تشبيهات جماليّة، فربّما هي من مبالغات الشعر عند ابن زيدون، وكذلك من دواعي الحرص على تجاوز الصورة السائدة، لكسر التكرار، واختزال ما يريده الشاعر بصورة مكثّفة.

وهذا ما تؤكده أبيات أخرى، موجّهة للمعتضد وابنه للتهنئة بالنصر على المظفر بن الأفطس[26]:

فجلّ هِلالاً في ظلامِ عجاجةٍ تُلاحظه الأقمارُ-في الأفقِ-حُسّداً[27]

والمقصود أنّه صاحب جلال وقدر عند إشراقة في غمرة الحروب، منير كالهلال، تحسده الأقمار في صفحة السماء. وهنا يتخيّر الشاعر المفردات، فينتقي لفظة الهلال؛ ليقيم دعائم الصورة، فتبدو بصريّة وحركيّة، وسمعيّة(المعركة) ماثلة في ذهن القارئ، تعمّق عنده المعنى، وتؤكّد فكرة أنّ الانسان بقدره وقيمته لا بحجمه وظاهره، فالممدوح هلال صغير الحجم، غير أنّ ضجيج وهلته يؤرّق الأقمار الكبرى، ويزعزع مستقرّها؛ فتلاحقه، وتحسده. ومن هنا يعوّل على قيمة الإنسان وفعله فقط.

كما أنّ استعمال المفردتين: الهلال، والقمر في هذا السياق يكشف عن استفادته منهما للتعبير عن ماهيّة العلاقات البشرية، وما ينتباها من زعزعة وتنافر.

وممّا قاله في المعتمد عندما عاد من إشبيليّة ظافراً من بعض الحروب:[28]

كُلّما شاءَ تَأتّى أن يرى خُلُقَ البِر جِيسِ في خَلْقِ القَمَر[29]..

وفيه يقول أيضاً:

ألحَقَني بِرُّكَ بالنّجمِ يا ابنَ البُدورِ الزُّهْرِ مِنْ لَخَمِ[30]

ومما يمكن الإشارة إليه أيضاً، أنّ القمر وحالاته حاضر في مدح الأصدقاء، وكأنّه يريد التأثير في القارئ، ويعمّق فكرة الصداقة وقدسيّة هذه العلاقة الأخويّة النبيلة، فهي نبض الإنسان وعلاقته موغلة في النفس.

إذ يقول وقد أرسل الشاعر لصديقه أبي حفصٍ بن برد الأصغر، عابثاً بصديقهما أبي صفوان:

قُلْ لأبي حَفصٍ، ولم تكذبْ يا قمرَ الديوان والموكب [31]

ويقول ردّاً على صديقه ذي الوزارتين أبي عامر بن مسلمة عندما عاتبه:

---

[23] . ديوان ابن زيدون، ص440.

[24]. المصدر نفسه، ص460

25 . المصدر نفسه، ص447.

[26] . المُظَفَّرُ بنُ الأَفْطَس: سُلْطَانُ الثَّغْرِ الشِّمَالِيّ مِنَ الأَنْدَلُس، وَدَارُ مُلْكِهِ بَطَلْيَوس، كان رأساً في العلم والأدب والشّجاعة، والرّأي: الذهبي، شمس الدين(1985). سير أعلام النبلاء، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط، تقديم: بشار عواد معروف، ط3، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ص85.

[27] . ديوان ابن زيدون، ص475.

[28] . صَاحِبُ الأَنْدَلُس، المُعْتَمِدُ عَلَى اللهِ أَبُو القَاسِمِ مُحَمَّدُ ابنُ الملكِ المُعْتَضِدِ بِاللهِ أَبِي عَمْرٍو عَبَّادِ ابْن الظَّافر بِاللهِ أَبِي القَاسِمِ، قَاضِي إشبيليَة، ثُمَّ مَلِكُهَا.

[29] . ديوان ابن زيدون، ص515

[30] . المصدر نفسه، ص606.

[31] . المصدر نفسه، ص198.

رأيتُك قلتَ: "إنّ الهجرَ بدرٌ" متى خلتْ البدورُ من السَّرارِ؟[32]

وممّا قاله في الصديق نفسه:

لا زالَ بدراً طالعاً نيّراً يكشفُ عن آمالنا الحِنْدِسا[33]

وله في مناجاة صديقه أبي القاسم بن رفق:

عُذْري، إن عَذَلْتِ في ضَلْعِ عُذري غُصْنٌ أثمرتْ ذُراه ببدري[34]

ويقول في مدح صديقه الأمير أبي الوليد بن جهور قبل ولاية الحكم وبعده:

هل عَهِدْنا الشمسَ تعتادُ الكِللَ أم شَهِدْنا البَدْرَ يجتابُ الحُلَلْ؟[35]

ويعمد إلى أسلوب الاستفهام المُخرَج عن غرضه، ويؤنسن القمر؛ ليجعله إنساناً يجتاب الحلل، الأمر الذي يعمّق الصورة الشعريّة، ويسمو بمقصد الشاعر ومراده؛ فظاهر الأمر أنّه تصوير الجمال والبهاء، لكنّ المعاني ربما أبعد من ذلك، حيث تدلّ على وعي الشاعر بممدوحيه، وتكشف عن العلاقة بين الأنا والآخر، كإبراز موقفه السياسي، ممّا يعني أنّه مرتبط بواقعه ومجتمعه.

ويقول في تهنئة صديقه أبي الوليد بن جهور[36]، بولايته الحكم:

شمسٌ النهارِ وبدْرُه ونجومُه أبناؤه من فَرقدٍ وسِماكِ[37]

وفي في القصيدة نفسها:

يا أيها القمرُ الذي لسنائه وسناه تعنو السبعُ في الأفلاكِ[38]

فهو يرى الأمير بازغاً ساطعاً في أفقهم كالبدر، فدانت وطمحت لرفقته الكواكب السبع السيّارة.

ولعلّ رؤية الشاعر في هذا الموضع تتمثّل بالعلوّ والرّفعة والمجد، وكأنّه أمر مستقرٌّ في أعماق نفسه؛ فهو الشاعر والأمير؛ لذا دائماً يرنو إلى المعالي.

ونقرأ فيما يخصّ مدح الأمير أيضاً:

محيّاك بدرٌ، والبدورُ أهلّةٌ ويمناك بحرٌ، والبحورُ ثغابُ[39]

ويقول مادحاً المعتمد بن عبّاد، وفي مخيّلة الشاعر أنّ البدر يتشرّف بالإنشاد لممدوحه ويطرب:

لو الشمسُ من نظمِه حُلّيَت أو البدرُ قامَ لهُ مُنشداً[40]

لضاعفَ من شَرَفِ النيّريْنِ حظّاً به قارنَ الأسعدا

وقال فيه أيضا مادحاً، وقد تفوّق سناء جبينه على وضاءة الشمس والقمر:

يغشى النواظِرَ من جَهيرِ رُوائِه خَلقٌ يرى ملءَ الصدورِ مُطَهَّمُ

وَسَنا جَبينٍ يستطيرُ شعاعُهُ يُغني عَنِ القَمرين من يتوسَّمُ[41]

---

[32] . المصدر نفسه، ص200.
[33] . المصدر نفسه، ص228
[34] . المصدر نفسه، ص230
[35] . المصدر نفسه، ص338.
[36] . حكم عَلَى قُرْطُبَة ثَمَانِيَةَ أَعْوَام، فَقصدهُ ابْنُ عَبَّاد، وَقهره، وَأَخَذَ البَلَدَ، ثُمَّ سَجَنَ أَبَا الوَلِيْدِ فِي حصن: الذهبي، شمس الدين ، سير أعلام النبلاء ، ص58.
[37] . ديوان ابن زيدون، ص346.
[38] . المصدر نفسه، ص349.
[39] . المصدر نفسه، ص377.
[40] . المصدر نفسه، ص216
[41] . المصدر نفسه، ص315.

ويقول أيضاً:

وفي الكِلّةِ الحمراءِ وسطَ قبابِهم فتاةٌ كمثلِ البدرِ قاتلةُ السّعدْ[42]

وينشده كذلك:

قَمَرٌ، إن جابَ غَيْمَ النَّ قْعِ فالهالَةُ مِغْفَر[43]

ومنه:

فإنْ تناقَلكَ الدّيارُ فطالما تَناقَلتِ البَدرَ المُنيرَ المنازِلْ[44]

واللافت في السّياق هذا، أنّ القمر يحضر بكلّ حالات الشّاعر وانفعالاته، فيتشكّل بالصورة كيفما أراد له ، وكأنّه يستنجد به لإضاءة مساحات القصيدة أيّاً كان مقصدها، فيقدّم للمتذوّق صوراً إبداعيّة فنيّة ترسم نهجه الخاص، وتفتح الرؤى والتأويل أمام القارئ؛ لذا فلا غرابة أن نجد توظيفه في توسّل الشاعر وضراعته أثناء وجوده في السجن.

فها هو يقول شاكيا ومتوسّلاً في عهد أبي الحزم بن جهور:

انظرْ ترَ البدرَ سناً، واختبرْ نجِدْهُ كالمسكِ إذا مِيثَ فاحَ[45]

وفي مدح الأمير واستعطافه:

محاسِنُ ما للحسنِ في البدرِ عِلّةٌ سِوى أنّها باتَت تُمِلُّ فتستملي[46]

فالبدر لا علة له سوى أنّه يستمدّ جماله من الأمير، وهذا تشبيه عميق يغاير الأصل، وله حالته النفسيّة الباعثة، كما لو أنّه ينشد منه منجىً وخلاصاً، ويتأمّل مخرجاً ينسلّ عبره من ظلمات السّجن؛ لذا جاءت الصورة مزخرفة بالمبالغة؛ لتؤدي وظائف بلاغيّة، وتقصد إلى التأثير في الممدوح؛ استمالة لعاطفته، وتأسيساً لعلاقة وديّة، تنتزعه من غياهب السّجن المتخمة بالوجع والمرارة.

وكتب أيضاً في أيام السجن الأخيرة، ما فيه من العتاب والضراعة:

زارَ مُستخفِياً، وهيهاتُ أن يخـ ـفى سنا البدرِ في الظلامِ البهِمِ[47]

وممّا يمكن قوله في توظيف مفردة القمر مع الملوك والأمراء، أنّه جعلها مفردة حبلى بالمعاني والأهداف، فالمعتاد هو تشبيههم بالأمر العظيم مواءمةً لجبروتهم، غير أنّ ابن زيدون أتى بمختلف مغاير يتخلّى عن التقليدية ، فهو يشبّههم بعنصر جماليّ رقيق ، يضفي عليهم سمة جديدة هي الإشراق والهدى والنّور على اعتبار أنّ الكرم والسّخاء وارد معلوم، ولعلّ ما يتوخّاه من ذلك هو كشف كلّ ما فيهم من سمات مادية ومعنوية، فهم أقمار دائمة السّطوع والحضور، ترعى شؤون الرعية، وتبدد ضبابيّة الأمور، وإذا ما أفَلَت، فالحياة خراب فوضى ، أو أنّ هؤلاء أهل شهرة ساطعة سطوع القمر، ومكانة عالية توازي مكانته.

فهو يعرف إذن كيف يصل ممدوحه ويؤثر فيه، عبر صياغة النصّ، وانعكاس الطبيعة الأندلسيّة على نفسه وأشعاره

القمر والهجاء:

وكما هو القمر حاضرٌ في المدح والحب، نراه أيضاً في اتجاه مضادّ هو الهجاء والذم، يتشكّل في النص ضمن إبداع مدروس، واستثمار خلّاق" كأنّما تدعو إليه حاجة نفسيّة"48. وممّا يحسن الإشارة إليه أنّ القمر في هذا الغرض قد ورد بقلة لا يتجاوز عدد الأبيات الواحد، وهو ما يقول فيه:

وقد تُسمِعُ اللّيثَ الجِحاشَ نَهيقها وَ تُعلي من البَدرِ النُّباحَ كِلابُ[49]

[42] . المصدر نفسه، ص353.
[43] . ديوان ابن زيدون، ص614
[44] . المصدر نفسه، ص397
[45] . المصدر نفسه، ص248.
[46] . المصدر نفسه، ص266.
[47] المصدر نفسه، ص279.
[48]. إسماعيل، عزّ الدّين، د.ت، التّفسير النّفسيّ للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ط4، ص67
[49] ديوان ابن زيدون، ص382

وقد تُرَدّ هذه القلّة إلى عدم ميل الشاعر للصّرامة وإثقال النّصوص بالوعورة اللّفظيّة، أو تقديم مادّة تناقض رقّة ما جادَ به في المحبوبة، والملوك، والأصدقاء.

القمر والذات الشّاعرة

وتستمرّ صورة القمر في شعر ابن زيدون، لتصل إلى توظيفه حتى بالحديث عن نفسه وتحوّلاتها، فيقول:

مَحَقَت هِلالَ السّنّ قبلَ تِمامِهِ و ذَوَى بِها غُصنُ الشّبابِ رطيبا[50]

والمقصود أنّ الدنيا أهلكته، فمحقت شبابه قبل النّضوج.

ومنه كذلك:

ولي معاذيرُ لو تطلّعُ في ليلٍ سَرارٍ أغنتْ عن القمرِ[51]

إنّه يوازي وضوح معاذيره بالقمر، وقد تتفوق على ذلك؛ لأنّ السّمو عالق بذهنه، وحالة ملتصقة لا تفارقه؛ لذا يستثمر لفظة القمر في كلّ حالة؛ فيعمل على تقريب الصورة التشبيهيّة، والاتّجاه بالمعنى إلى الصّمود واللغة الواثقة.

وهذا ما نقرؤه أيضاً في حديثه عن نفسه داخل السجن:

هل الرّياحُ بنجمِ الأرضِ عاصفةٌ أم الكُسوفُ لغيرِ الشمسِ والقمرِ؟[52]

فمن الواضح أنّ الأنا في البيت السّابق تعلو، وتتحدّى، وتتظاهر بالتماسك؛ قهراً لقوّة خصمها، فإن سجنتموني فما الكسوف إلاّ للشمسِ، وما النوازل إلاّ للعظماء، فبتوظيف "القمر"، إذاً، يدفع ظلمة روحه الداخليّة، ويضيء رماد السجن وقيوده، وينبئ الخصم أنّ الجسد وإن كان حبيساً، فالرّوح حرّة ترنو للأعالي، وتتطلع للنور والإشراق. وكأنّ الشاعر عرف كيف يرسم نفسه باللغة، وينتقي من الصور ما يتعالى بها ويتسامى، وينتج من الطبيعة ما ينتشل به نفسه. فالقمر هنا يمثّل الشموخ والتّحدي، ويرسم أمام القارئ الحالة النفسية للشاعر.

وفي المعنى نفسه يقول في قصيدة يعاتب بها أبا الحزم بن جهور، ويرجوه:

أيّها المؤذيّ بظُلم الليالي ليس يومي بواحدٍ مِن ظلومِ

ما ترى البدرَ إن تأمّلتَ والشمـ ـسَ، هما يُكْسفانِ دونَ النجومِ[53]

ولعلّ تكراره صورة القمر هذه تحديداً "والاستشهاد بحالة الشمس التي تتعرض للكسوف وتحجبها الغيوم والظلمة، إنّما هو نابع من شدّة إحساسه بالظلم الذي لحق به، ومدى ثقته بنفسه، وبمكانته السياسيّة والاجتماعيّة"[54] والأدبيّة، ناهيك عن أنّه يعاين بهما نور الحريّة الذي ينشده، وفيض نفسه بالأمل والتفاؤل رغم سجنه. وإن كان يمكن القول أيضاً إنّه يتحدّى أبا جهور بطريقة غير مباشرة، ولا يستطيع الإفصاح عن ذلك جهاراً، وهذا ما نستكشفه من خلال الخطاب الشّعريّ، وكيفيّة صياغته.

القمر والرّثاء

كما يرتبط القمر عند ابن زيدون بتجربة الرّثاء؛ والكشف عن المعاني الإنسانيّة التي ترافقها، وذلك بتشكيلها ضمن رؤى متعددة ومتناقضة، تتواءم والحالة السّائدة. فقد كتب في وفاة أبي الحزم بن جهور، ومهنّئا ابنه أبا الوليد وقد خلفه في حكم قرطبة:

ألم ترَ أنّ الشّمسَ قد ضَمَّها القَبرْ وأن قد كفانا -فقدَها- القمرْ والبدرْ[55]

ويقول أيضاً في رثاء صديق الطفولة والصّبا، القاضي " أبو بكر بن ذكوان " في ربيع الأوّل 435هـ:

إيهاً بني ذكوان!! إن غَلَبَ الأسى فلكم إلى الصبرِ الجميلِ مآلُ

---

[50] المصدر نفسه، ص326

[51] . المصدر نفسه، ص208.

[52] . المصدر نفسه، ص254.

[53] . ديوان ابن زيدون، ص280.

[54] . جرار، صلاح (2014). دراسات جديدة في الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص86.

[55] . ديوان ابن زيدون، ص523

إن كان غابَ البدرُ عن ساهوره منكم وفارقَ غابَه الرّئبالُ[56]

ونقرأ ما كتب في رثاء الصديق نفسه:

قَمَرٌ هَوَى في التُّربِ يُخشى فَوقَه للّهِ ما حازَ الثّرى المنهالُ[57]

وكتب معزيّاً الأمير أبا الوليد بن جهور في أمّه:

فديناكَ!! إنّ الرّزءَ كان غمامة طلّعتْ لنا فيها كما يطلعُ البدرُ[58]

ونلاحظ هذا التّكرار أيضاً في قصيدة مشابهة عند رثائه المعتضد[59]، وتهنئة ابنه المعتمد بولاية الحكم[60]:

لكَ الخيرُ، إنّ الرُّزْء كان غيابةً طَلّعتْ لنا فيها كما يطلُعُ البدْرُ[61]

إذ يقول: لقد أحلّ بنا المصاب كما يحلّ الظلام، حتّى أنرتنا إنارة البرق الطّلامَ.

إنّ ما تعارف عليه بالرثاء هو غلبة البكاء والعويل، غير أنّ ابن زيدون يمزج الجمال بالحزن والفقد، ويقيم علاقة تآلف بينهما، فيجمع بين غرضي المديح والرثاء في بيت واحد من خلال انتقاء المفردات والقدرة على التكثيف والإيجاز، وكأنّ انتقاء القمر في حالة الرثاء يمثّل حقيقة الحياة القائمة على الفرح والحزن، أو العوض بعد الفقد. وعلى المستوى الفنيّ فإنّ المفردة في النص أصبحت" نوعاً من العالم، الخليّة المنظّمة التي تكون جزءاً من عالم أوسع"[62]

الخاتمة

وأخيراً، فإنّ فكرة توظيف "القمر" عند ابن زيدون تنطلق من ذات الشّاعر للآخر المقصود، والتّعبير عن دواخله الخاصة قبل التعبير عن الآخر، وتؤكّد الهاجس الداخلي لديه، وما يحتويه من العلو والجمال والرفعة، واتخاذ القمر مصدّاً للحزن والانكسار، كلّما كادت الروح أن تُثبط أو تقع في فخ الاستسلام والقهر. وعليه فإنّه من الممكن القول إنّ دلالة القمر لا تتوقف عند قيمة الجمال والإضاءة، أو البعد الظاهري له، وإنما يتخذه في بعض المواطن معادلاً موضوعياً لنزع شوك الألم قبل أن يتمكّن بالنفس، والتعالي على ردهات السجن المظلم، ممّا يشي بانسجام الشكل والمضمون، لتحقيق حيويّة النص، وتفاعل مكوّناته.

كما أنّ تباين حالات القمر (البدر، الهلال، القمر)، قد تشكّل حالات الشاعر المتنوعة وانفعالاته، وإن ثمّة حالة عامّة جامعة، فهو أحياناً مكتمل بالعلو والفرح، لامع الحضور كحالة البدر والقمر، وأحياناً تتقاذفه العواذل وألسنة الوشاة؛ فتخبو الروح، ويتناقص بريقها كالهلال، ولعلّ هذا الاستعمال ما يضفي على النص سمة التكثيف والإيجاز، والتعبير عن كوامن النفس وشعورها بمفردات دلالية تؤدي إلى الاقتصاد اللغوي دون العبث بتركيب الصورة وفنيّة النص، علاوة على أنها تفتح باباً لتعدد القراءات، وتشكيل خصوصيّة وعلامة رفيعة فارقة بين الشعراء، لا سيّما أنّ القمر قد وظّف منذ القدم في الأشعار العربيّة، غير أنّ ابن زيدون استطاع التجديد والابتكار، والميل بالصورة عن عيب التكرا، والإعادة، مع المحافظة على بساطتها ووضوحها، وهو أمر – بالطبع – لا يحطّ من قيمة جمالها وتأنّقها.

أمّا اللغة، فسهلة رقيقة، تخلو من الإبهام والمبالغة، يطوّعها الشاعر بيسر؛ لتنسجم مع الأغراض الشعريّة، وتستميل القارئ، فتأتي مفردة القمر متكاتفة مع غيرها من الألفاظ كعقد محكم بالغ العناية، حيث تؤدّي دوراً مهماً في تركيب الصورة وإضاءتها،

[56] . المصدر نفسه، ص535.
[57]. المصدر نفسه، 532
[58]. المصدر نفسه، ص545.

[59] . صَاحِبُ إِشْبِيْلِيَة، أَبُو عَمْرٍو عَبَّادُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ بنِ عَبَّادٍ اللَّخْمِيُّ، الأَنْدَلُسِيُّ، ابْنُ القَاضِي أَبِي القَاسِمِ. حكم أَبُوْهُ عَلَى إِشبيلِيَة مُدَّةً، وَمَاتَ فِي سَنَةِ ٤٣٣هـ، فَقَامَ عبَّادُ بَعْدَهُ، وَتلقَّب بِالمُعْتَضِد بِاللهِ. وَكَانَ شَهْماً، مَهِيْباً، شُجَاعاً، صَارِماً، جرَى عَلَى قَاعِدَة أَبِيْهِ مُدَّة، ثُمَّ خُوطِبَ بِأَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ.

[60]. صَاحِبُ الأَنْدَلُس، المُعْتَمِدُ عَلَى اللهِ أَبُو القَاسِمِ مُحَمَّدُ ابنُ الملكِ المُعْتَضِدِ بِاللهِ أَبِي عَمْرٍو عَبَّادِ ابْنِ الظَّافر بِاللهِ أَبِي القَاسِمِ، قَاضِي إِشبيلِيَة، ثُمَّ مَلِكُهَا.

[61] . ديوان ابن زيدون ص571

[62] . برنار، سوزان **(1998).** قصيدة النثر من بودليرحتّى الوقت الرّاهن، ترجمة راوية صادق، مراجعة وتقديم رفعت سلام، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، ج2، ص43

فالتشبيهات فيها من الجدّة والبلاغة، ورفض المألوف، كأنسنة القمر، والخروج على مقتضى الظّاهر، كقلب التشبيه في أن يستمدّ القمر جماله من الممدوح، وغيرها من الصور اللافتة التي تجتمع فيها الحركيّة والبصريّة والسمعيّة.

وممّا يجدر ذكره في هذا السياق، أنّ القمر ليس دائماً للضّياء والنور والإشراق، وإنّما لأغراض أخرى قد لا تُتوقع، وهنا يكمن الإبداع والتّجديد، كأن يُستعمل لغيض المحبوبة بأخرى، أو الاعتداد بالنّفس، أو التوسّل للملوك ...وغيره، وبذا يصبح للقمر معانٍ ودلالات، تصوّر فلسفة الحياة، وما تقوم عليه من ثنائيّات عديدة، وهذه هي القدرة الشّعريّة التي تعلن عن نفسها، وتجمّل النصّ برمزيّات بسيطة قابلة لفكّ مغاليقها..

أمّا توظيف القمر في حبّ ولادة، فلم يكن دائماً ضمن الصورة النمطية المتعارفة للضياء والغزل، وإنّما سار بخطوط متنوّعة، كالعتاب، والبعد، ورقيّ المكانة، وتفضيلها على سواها. في حين أنّه جاء مع الملوك تارة للعتاب، وأخرى للتضرّع والتوسّل؛ تأثيراً بهم، وحصولاً على مرامه، مع ملاحظة المبالغة بالمدح وابتكار الصور.

على أنّنا نراه في الصداقة والصديق والرثاء، يحمّل مفردة "القمر" تعبئة دلاليّة غنيّة، وفيضاً شعوريّاً، وتكثيفاً لغويّاً يسدّ مسدّ كثيرٍ من الجمل التعبيريّة، وينبئ عن حسٍّ إنساني عالٍ مصاغٍ بأسلوب راق، ولغة دافقة موائمة للحدث، لاسيّما عندما يجمع الرثاء بالمديح، إذ لا تناقض في اللغة ولا فوضى.

وبالمجمل، فقد يرى الباحثان أنّ تركيز ابن زيدون على توظيف القمر هو توكيد منه للذات الشاعرة أولاً، والتعبير عن الآخر ثانياً ، فالقمر في منظوره لليس للحبّ والغزل وحسب ، وإنما وُظّف أحيانا لثنائيات متضادّة، كالأنا والآخر، والقبول والرفض، للسّجين والسّجّان، والمقبول والمرفوض ، ومن هنا نقول أنّ هذه الثنائيات الواردة في النظريات الحديثة هي قابلة لاحتواء التّراث العربي ، أو بمعنى آخر، هو قادر على التفاعل معها، وتشكيل قراءة جديدة دون لي أعناق النصوص وإرغامها عنوة للتماشي معها، فابن زيدون خرج بمفردة القمر عن الاجترار والتّكرار في بعض الأغراض؛ فأدخله في مناحٍ سياسية، وإنسانية وعاطفية واجتماعية، ، تحتاج إلى سبر وتأويل. وبالتالي فإنّ هذا التراث الشعري ينسجم مع الحداثة ولا يتعارض معها، إذ بمكنته السير معها ضمن خطين متوازيين مع المحافظة على روحه الخاصة وصبغته العربية.

فالتراث العربي-شعراً- هو جزء من حضارة إنسانية متفاعلة مستمرة ولا يمكن اختزاله بزمن قد مضى، وأسدل الستار عليه، فالقمر مثلا موجود في الشعر العربي وغيره من آداب الأمم الأخرى، ويحمل دلالا ورمزية يطول الحديث فيها، وبالتّالي فهذا يؤكّد لنا أنّ الشعر في التراث العربي قادر على التفاعل مع النظريات النقدية والأدبية الحديثة، وأنّ النصّ التراثيّ زاخر، قادر على تشكيل لغة تحيل إلى دلالات متعددة، وهو ما يعرف اليوم بالتناص عند جوليا كريستيفا، أو انفتاحيّة النصّ عند جاك دريدا.

قائمة المصادر والمراجع

[1] **القرآن الكريم.**

[2] برنار، سوزان (1998). **قصيدة النثر من بودلير حتّى الوقت الرّاهن**، ترجمة راوية صادق، مراجعة وتقديم رفعت سلام، ط1، ج1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، **القاهرة**.

[3] جرار، صلاح (2014). **دراسات جديدة في الأدب الأندلسي**، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

[4] **ديوان ابن زيدون ورسائله**، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، د.ط، نهضة مصر للطباعة والنشر.

[5] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، تقديم: بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

[6] السواح، فراس: **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، ط 6، دمشق، دار علاء الدين.

[7] القيسي، الفتح محمد بن عبيد الله ابن خاقان (529هـ/ 1989). **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، تحقيق: حسين يوسف خريوش، ط1، الزرقاء، الأردن، مكتبة المنار.

[8] مرتاض، عبد الملك (1998)، **في نظرية الرواية(بحث في تقنيات السرد)**، عالم المعرفة، الكويت، العدد 240.

[9] نافع، عبد الفتاح (1983). **لغة الحب في شعر المتنبي**، ط1، دار الفكر، عمان.

[10] يموت، بشير (1934)، **شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام**، ط1, المكتبة الأهلية للطباعة لبنان.